مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 01 / العـدد 02 : (2014)، ص 06-21

فاعلية الفكر الصوفي في التربية الروحية وترشيد النشء

د.محمد الأمين خلادي
جامعة أدرار_ الجزائر

طـئة ممهدة

تأثلت المصدرية الإعجازية في الخطاب الصوفي الجزائري حتى غدت المبتدأ والمنتهى اللذيْن يتغياهما هذا الصوفي المبدع في بيانيته الفذّة المزدانة بالتجلّيات الإشراقية وترددات الحكمة العبقة البالغة وجماليات العبارة الفنية المائزة في بنيتها الأخّاذة اليتيمة وسيمياء رسالتها وإيقاعها الثرّ الخصيب، فبات مشهودا لأدبية هذا الخطاب بالعبقرية و الخروقية المعدولة في خطاب البشر.

من ههنا أُلفي المدعاة حثيثة إلى محاورة هذا الخطاب الصوفي الخالد الذي هو ملاذ للمرء اليوم في حياة ركبها الرّان وسلبتها المدنية فطرتها، وآلت إلى شفا جرف هار من التيه أو تكاد، وتعامت عن شواهد البصيرة وزاغت عن مقامات اليقين وحادت عن بعض معالم التوحيد.

فغدا من عين الفريضة على البشرية أن ترجع البصر تكراراً ومراراً عساها تكرع من الخطب المعجزة و الراشدة المنورة للذات والكون ومربية للسلوك ونظمه ! كما القرآن العظيم والسنة المشرفة وبيان الخطاب الصوفي شعره ونثره التي ظلت قرونئذ مدارس تهوي إليها قلوب ضلت ونفوس طاشت وأجساد عاثت وأرواح غفت ...

ومما لا يخفى على ذي لب أنّ الخطاب الصوفي بات مركوزاً في الخطاب الأدبي العربي والإسلامي، وعنوانا للتربية الروحية وترجمان حيوات الواصلين الذين ذاقوا فيوضات المحبة وإشعاعات الصفوة، فبلغوا معارج القيادة إلى البرّ وتفعيل التربية وإنبات النشء إنباتاً حسناً صالحاً . . .

وعليه فالموضوع المطروق هو بحث التجليات والجماليات التي يختص بها الخطاب الصوفي المعاصر وروحياته التي تنبجس في مشاهد التربية من التخلي والتحلي والتجلي ؛ في نماذج مختارة من شعراء معاصرين عربا ومسلمين ، هدفهم تقويم السلوك البشري وتربية الفرد الصالح والمواطن القويم ، وكذا الاضطلاع باللغة الصوفية وتصويرها الرمزي المؤثر في النفس الإنسانية ومدى الأثر الشعري في المتلقي...

ونود من الدراسة والتحليل بلوغ بعض النتائج العلمية العملية التي تؤسس الذوق الإنساني للمرء المؤمن ، وكذا توجيهه نحو التعامل بالحسنى والوسطية تجاه بني الإنسان أيا كانوا؛أضف إلى هذا البحث عن السبل العلمية التربوية الذوقية النفسية الكفيلة بإمداد المتلقي اليوم _في خضم العولمة والحضارة المادية الغالبة _بروحانية الكلمة والأخلاق الرفيعة العظيمة التي تداوي الحياة المعيشة للفرد والمجتمع، ومما لاشك فيه سأنوع من الشعراء المعاصرين الذين سلكوا هذا الاتجاه في مقاماتهم الشعرية وشتى صنوفها ومراميها...

تأثلت المصدرية الإعجازية في الخطاب الصوفي الجزائري حتى غدت المبتدأ والمنتهى الذيْن يتغياهما هذا الصوفي المبدع في بيانيته الفذّة المزدانة بتجلّيات الإشراقية وترددات الحكمة العبقة البالغة وجماليات العبارة الفنية المائزة في بنيتها الأخّاذة اليتيمة وسيمياء رسالتها وإيقاعها الثرّ الخصيب، فبات مشهودا لأدبية هذا الخطاب بالعبقرية والخروقية المعدولة في خطاب البشر.

من ههنا أُلفي المدعاة حثيثة إلى محاورة هذا الخطاب الصوفي الخالد الذي هو ملاذ للمرء اليوم في حياة ركبها الرّان وسلبتها المدنية فطرتها، وآلت إلى شفا جرف هار من التيه أو تكاد، وتعامت عن شواهد البصيرة وزاغت عن مقامات اليقين وحادت عن بعض معالم التوحيد.

فغدا من عين الفريضة على البشرية أن ترجع البصر تكراراً ومراراً عساها تكرع من الخطب المعجزة و الراشدة المنورة للذات والكون ومربية للسلوك ونظمه ! كما القرآن العظيم والسنة المشرفة وبيان الخطاب الصوفي شعره ونثره التي ظلت قرونئذ مدارس تهوي إليها قلوب ضلت ونفوس طاشت وأجساد عاثت وأرواح غفت ...

ومما لا يخفى على ذي لب أنّ الخطاب الصوفي بات مركوزاً في خطاب التراث الإسلامي، وعنوانا للتربية الروحية وترجمان حيوات الواصلين الذين ذاقوا فيوضات المحبة وإشعاعات الصفوة، فبلغوا معارج القيادة إلى البرّ وتفعيل التربية وإنبات النشء إنباتاً حسناً صالحاً بلْ بنؤا أفضل نموذج للدولة الإسلامية الأصيلة والمتحضرة كما رسّخ ذلك شيخنا وعلامتنا ومجاهدنا ومربّينا الأمير عبد القادر الجزائري وعشرات من أضرابه الأفذاذ كالشيخ أبي مدين الغوث والسيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي والشيخ عبد القادر بن محمد الصديقي البكري والشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ أحمد التيجاني... وغيرهم كثير.

وكل واحد من هؤلاء الأخيار وسواهم من أكفائهم ما انفك مربيا الفرد والمجتمع سلماً وحرباً وطنياً وعالمياً يأخذ بيد المرء إلى بر النجاة دنيا وأخرى، وما تزلزلت الشخصية الإسلامية وما تضعضع وطنها الحبيب إلا زمن ارتدّت عن شمس شريعتها ونهج نبيّها صلى الله عليه وآله وسلم وتغافلت عن مآثر علمائها وشيوخها وعقلائها وشهدائها ومجاهديها وزعمائها...؟! فالأبعاد الحضارية والإنسانية في التراث الفكري الإسلامي مرسومة بيّنة وراشدية سديدة خطّها كبار الصوفية في بيانهم الذوقي الذي يتغيي تهذيب النفس وتفعال المعاني العالية كالورع والتقوى والعفة ومحبة الأوطان والذود عنها عملا وإنجازا في السلم وجهادا متناهيا في الحرب، وكذا العفة والصدق والإخلاص والسماحة والتطوع والتعاون والحرمة... وغير هذا من سبل الرضى والرضوان من خلال رسائلهم البيانية شعرا ونثرا؛ ورسائلهم الحضارية الإنسانية الثملى بالحقائق الخالدة اليقينية والدلائل السامقة الذاهبة في سماء المجد الحقيقي ناهيك عن الآليات الجمالية والأسلوبية والإيقاعية والرمزية السيميائية والإبلاغية والتوصيلية العميقة...!

في ضوء ذلك تخيّرت الدراسة بتلك العنونة، ومفاصلها هي:

طئة ممهدة

العرض

1قراءة في منظومة المصطلح ومدونة المفهوم .

2- فاعلية الخطاب الصوفي في تربية النفس وبناء المواطن الصالح.

3-تجليات نظم السلوك وصناعة الشخصية السوية (النص الصوفي من الواجهة إلى القفا . نماذج متعددة).

الخاتمة/ مقترحات، آمال، واجبنا تجاه الخطاب الصوفي و تسويغ الإفادة منه بين الضرورة و الشرط...

1/ قراءة في منظومة المصطلح و مدونة المفهوم

ما من رسالة جادة إلا وتتسم بالأثر ورسم الأهداف المتغياة منها؛ كرسالة مجلة كنوز الحكمة وتلك منارة علمية ترشد الفكر وتبني النشء من خلال البحوث والدراسات في سلسلتها الذهبية الهادفة وهذا حافز الكتابة وبالأخص مدعاة إعادة النظر في ضرورة إتقان تربية الطفولة على هدي من العلم والحكمة والعرفان... وأضيف إليها غاية حفّزتني على اصطفاء هذا الموضوع تتجلّى في عنايتي بعلماء وشعراء العرب والمسلمين فكثيرا ما غُمروا وتُنُوسوا خاصة في خضم الركود الذي يرين على قلب الأمة

العربية والإسلامية كما موجات الترهّل وبعض المِزَق الذي حلّ بالوطن العربي والإسلامي في عهود عديدة؛ تلك الفترة التي ظلّ فيها الدّاجي سبيل الحق لمّا أغفل مفاتيح النور التي صنعها العلماء والشهداء ورجالات الفكر في المناحي الشتّى...!

ولا يخفى على ذي لب أن آفاق التراث الإسلامي لدى النخبة الفاضلة من العلماء قد عمّت أرجاء العالم الإسلامي بل امتدّ صداها إلى كل القارات والأمة الإسلامية حتى الإنسانية، وذاك مذ عهد الفاتحين الأوائل ... إلى يوم الناس هذا...!

رسّخ العلماء معارف عديدة كثيرة في حقول العلوم والفنون كاللغة والتفسير والتاريخ والأدب والفن والفكر والعقيدة... وغيرها كثير، فكانوا رموزا للتربية والتعليم والتأديب ينهلون من القرآن العظيم والسنة المشرفة وعلوم السلف أنوار الحقيقة وإشراقات العرفان، بل إنهم صيّروا معارفهم سلوكا منظوما في حياتهم اليومية يُشهد عيانا فتلتفّ حول مجالسهم جموع المتعلمين وزرافات المريدين قصد الارتشاف من منابعهم الصافية والأخذ عنهم ما يصلح دينهم ودنياهم وآخرتهم... وتلك بعض سمات مناهج العلماء المسلمين والصلحاء مذ عهد الفاتحين والتابعين إلى اليوم، قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا).[1]

ومما يُعلم يقينا أن أعظم منطلق انبعث عنه عملهم وعلمهم هو نفسه أعظم بعد حضاري إنساني ضحّوا من أجله وسهروا على تحقيقه في الصدور والسطور، وهو التربية الصالحة والخلق القويم في القول والفعل والنظر والتطبيق والدين والدنيا والجسم والروح ... ثنائيات منظومة فيها كامل الاتزان والتوازن سيّان من غير إفراط أو تفريط.

ولا خير في علم بلا عمل فقد قال الشيخ العلامة المجاهد الفذ الأمير عبد القادر الجزائري:

رَفَعْنَا ثَوْبَنَا عَن كُلِّ لُؤمٍ وَأَقوَالِي تُصَدِّقُهَا الفِعَالُ

ذلك في إحدى قصائده الحكمية الجريئة؛ فالعلم لا عبرة به إن لم يُصحب بالعمل؛ لذلك فالعلم إن لم يجد العمل لا يقرّ فيفرّ! وهذا المراد بالفاعلية التي يزدان بها الخطاب الصوفي فهو خطاب سلوكي ونظم للأخلاق الفاضلة العالية، حيث إن مفتاح الإنسان العاقل اللبيب كما المريد وطالب العلم هو آداب الطريق إذ لا خير في متعلم خلو من تلك الروح السامقة كالإنصات والتواضع و خلوص النية وخشية الله تعالى والتورّع

والعفّة والاعتدال في المأكل والمشرب والمجلس والملبس وكذا الصبر و العزمة والنظام والمواظبة والمجاهدة والإخلاص والصدق ... وسائر المحامد المرضية.

من أجل ذلك حرص السادة الصوفية على تهذيب النفس البشرية وترويضها على السلوك الفاضل المحمود بدءاً من نشأة الصبي المتعلم زمن النقش في الصغر، زمن التربية الحق والتعليم السديد؛ وإن قال قائل إن الخطاب الصوفي عزيز عميق عال أو قال آخر إنه غموض وغلو وهراء؛ فإن التاريخ الموضوعي يحفظ للجلّة من هؤلاء العارفين نجاح خُطُبهم وسيرهم الغرّاء وأذكارهم وآدابهم مُذ فتوتهم، كما ركّزوا على هذه الرحلة مرحلة الفتوة قبل غيرها لأنها الطاقة التي لا تُعوّض مهما كان الجدّ والجهد.

فالصوفية هم الصفوة النخبة الذين يُتّعظُ بهم وبشمائلهم الحسنى وهم أهل المكارم والتّقى والرضا؛ فأقمن بالعاقل أن ينهج إرشادهم ويسلك مسلك الفضيلة الذي يبلغه البعد الحضاري الإنساني الذي رسموه فكانوا قداة هداة للمسلمين ولغيرهم « إن من يتولى أمر التربية الإسلامية للنشء يجب أن تتوفر لديه كفاءتان : أولاهما الكفاءة العلمية؛ وهي تقتضيه أن يكون متبصّرا في عمق بجميع علوم الإسلام، وأن يكون واسع الاطلاع على الثقافة العامة. والثانية الكفاءة التربوية؛ وهي تقتضيه أن يكون مستقيما في خلقه وسلوكه، بحيث يستطيع أن يجعل من استقامته أول سبيل إلى تنشئة طلابه على تلك الاستقامة... » [(2)] ؛ وبهذا كان المتصوفة أبرز فئة عالمة تولّت تربية الأجيال المؤمنة في عديد من المراكز الروحية بإشعاعها الديني التربوي قبل الاحتلال الغربي وبعده، وهم الأكفاء المهرة الذين حملوا لواء التربية الإسلامية الروحية والقرآنية والنبوية والسلفية الصالحة مركّزة في ذلك على تهيئة المرء عقيدة وشريعة طريقة وحقيقة؛ وبهذا عُرف الجزائريون في حُقُب زمنية متوالية، وإن « القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين هما مرحلة الاعتراف الرسمي للدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط بالصوفية كشريحة مؤثرة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية.

يعتبر القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي الحدّ الفاصل بين التصوف النقي الخالي من الشعوذة والخرافات وبداية نشاط الطرقية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين وحتى المدارس الصوفية التي مثلت التصوف النقي على مستوى بجاية وقسنطينة وتلمسان في هذين القرنين ما هي إلا

صدى لتيارات القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وإن متصوفة هذه الحقبة اتسموا بالإيجابية في النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي بعيدا عن الخمول والتدجيل والنفاق السياسي ». [3]

تلك لقطة تاريخية تُظهر فاعلية الخطاب الصوفي في القرنين السابع والثامن ومدى إسهامه في الإشعاع الحضاري الإنساني بين الجزائريين لتنظيم حيوات عديدة كالدعوة إلى الإصلاح الأخلاقي والتعاون بين أفراد المجتمع على فعل الخيرات والتطوع والتلاحم في السرّاء والضرّاء وجمع كلمة المسلمين الجزائريين في مسائل الاجتماع وسلامة الجماعة في مستوى المسجد والأسرة والزاوية والمدرسة وغيرها، وكذا تفعيل الآفاق الثقافية من نشر لتعاليم الإسلام واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والعربي والوطني وإدارة النشاطات في مناسبات الأعياد ورمضان وموسم الحج وركبان العلم والأذكار وتوعية الجزائريين بالدفاع عن الأوطان ومعاضدة جيش المقاومة والتحرير أيام الاحتلال الغربي وتلك أعظم فضيلة سياسية رسّخها العلماء والمشايخ والطرق الصوفية والحركات الدينية في طرد الاحتلال وصناعة شخصيات مجاهدة عصفت بالعدو

2/أثر الخطاب الصوفي في تربية النفس وبناء المواطن الصالح:

لا مراء أن الخطاب الديني قرآنا كريما وسنة شريفة قد أمر بالعمل الصالح وحمل كل امرئ على أن ينشأ في ظلال الحسنى والصلاح وأنواع البر والتقوى، وهو نص أحرز فضاء خطابيا دينيا مركزاً مكثفاً بالمصدرية القرآنية النبوية والمعرفية الحكمية، فكان مؤلفوه بلغاء في الرسالة والدعوة إلى خشية الحي القيوم وأكثر حرصا من غيرهم على تصفية الروح والجسد من كل معطلات الخير والصلاح.

وعلماء الجزائر ظلوا على مراس متقن متفان في تربية المواطن الصالح الذي يخاف ربه ويعامل العباد بالخير وشرف الأخلاق الحميدة كلها، ويمشي على الأرض ورعا وحياء وعفة وتواضعا لا مرحاً وصخباً وفتناً... ! تلك الأرض التي علق حبها بسويداء أولئك الأجلاّء فمنحوا أوطانهم كل ما يملكون لحمايتها وصيانتها العقيدة والتاريخ واللغة العربية «وخاصة أن معظم قادة هذه الثورات ينتمي إلى الطرق الصوفية ابتداء من الأمير عبد القادر الذي ينتمي إلى الطريقة القادرية حتى المقراني الذي ساندته الطريقة الرحمانية». [4]

من هذا نؤمن تاريخيا بفذاذة هؤلاء العظام بل والعظيمات كالذي أنجزته "لالة فاطمة نسومر" وغيرها من الذين واللائي خدموا العقيدة الغراء والوطن وأرض الإسلام بصناعة الأجيال في تربية الشخصية السوية، فلم يركبوا هول الجهاد وشرفه وعزته عبثاً

وإنما هم على يقين صامد ومروءة شامخة وغاية خالدة في الجنان والآخرة حفاظا منهم على بيضة الأوطان والناس لا المؤمنين والجزائريين وحدهم، كالذي يشهده التاريخ العالمي في إنسانية المجاهد الأغر الصوفي الأكرم الأمير عبد القادر الجزائري مع النصارى المسيحيين في الشام وقس على ذاك الشيخ الجليل الذي يعد بحق نموذجاً للسلف الصالح من الصحب الكرام وورثة الأنبياء، فقد هيأته التربية الدينية الصوفية إلى مراقي الجهاد والذود عن العرض والأرض وتحمل ما لا يقدر عليه الآلاف من الناس من أجل رعاية البلاد والعباد، فسُجن وتكبّد الأثقال والأثقال في مقاومته المجيدة.[5]

وشيوخ المقاومة الجزائرية رسموا المُثل في التضحية الوطنية وتربية الناشئة على محبة الوطن وما يحيط به من مقومات الشخصية الإسلامية العربية الجزائرية؛ فكانوا بالشريعة والطريقة والحقيقة متمسكين مما خولهم أن يقودوا صفوف الجيوش في الزحف لتطهير الوطن من دنس الأرجاس وأعداء الإسلام والجزائر والبشرية.

فأول علامة مع فاعلية خطابهم الصوفي هي فاعلية التصوف فيهم بداية وأصالة فامتثلوا نداء الله تعالى وعملوا بما علموا ولم يخونوا الأوطان واستقاموا على الطريقة وردوا الخزي وأخلصوا للثغور والذمام وصبروا على الأسر والقتال والجراح؛ وكان أسرهم فضاءً اغترابيا بامتياز سمح لهم بتفعيل القرائح وبث الجوى ونظم الإبداع خطاباً شعرياً ونثرياً وقد جادوا به على طلبة العلم والعوام هادين إياهم إلى مكارم الشيم وأعالي القيم؛ ولم يكن تغرابهم وعزلتهم وخلوتهم هدراً للزمن والجهد بل هي من صور المشقة المثمرة بالنفع وكفانا أنهم وازنوا بين مطالب الدنيا والدين وجاهدوا في الله حق جهاده، فلم يثنهم التوحد والاعتكاف والمجاهدة عن التجارة والجهاد ومجالس العلم والرحلة والأسفار والقضاء والمعرفة المتنوعة رغم أن

« التجربة الصوفية ترتكز على الوحدة والعزلة والانفراد والانقطاع إلى الذات، لكي تتم للعارف تجلياته وإشراقاته، حتى أصبح لكل صوفي عارف طريق يعرج به روحياً عبر مقامات وأحوال تعبر على تجربته هو، أي أن التجربة الصوفية تجربة شخصية فردية تنعكس آثارها على السالك فيرى ما لا يراه غيره».[6]

والرحلة كما الغربة كما السجن كما خوض المعارك في الجهاد ضد الكفر والصليبية الحاقدة الصهيونية الداسة؛ لذلك تثبت حيوات الصوفية الكبار ذوي الباع الكبير واليد الطولى في الجهاد في الحرب والمقاومة صلاح تصوفهم ونجاح تمسكهم كالذي رسخه الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد البكري الصديقي الجزائري الولي الصالح الفارس المكافح في مقاومته ضد الاحتلال الغربي الصليبي في الجزائر وبلاد المغرب الإسلامي،

فهو صوفي « جاهد رحمه الله بقلمه ولسانه، جاهد بسيفه، وهذا الجانب من حياته في حاجة ماسة لدراسة متأنية... وقد وردت الإشارة في المناقب إلى مقاتلته الإسبان بوهران... توفي إثر جروح أصيب بها في قتاله الإسبان...»[7] وما أدراك هذا العلامة المقاوم فهو سلف السليل الصالح الشيخ سيدي بوعمامة صاحب المقاومة الشهيرة؛ فهؤلاء الصلحاء عبدوا الله بعلم وعمل ومحبة فيه وفي رضاه وبالسعي الحثيث إلى تنوير العباد وحماية البلاد ومن أعمالهم تستمد صور الأثر العلمي والصوفي في أخلاقهم وأفعالهم وصفاتهم إذ صيروا علومهم واجتهادهم الفقهي والعرفاني عملاً يسري في أرض الواقع إصلاحاً وترشيداً ودفاعاً عن المظلومين ونزعاً لحريات الشعوب بالقلم والسيف والنار وتركوا شواهد حق قائمة في المستويين الروحي المجرد كالذكرى الحميدة والمثل الأعلى في الخصال الإنسانية وكذا المستوى المادي المنجز كتحرير الأوطان ومنجزات المساجد والزوايا والمدارس الخالدة والمؤلفات... !

ويجدر بنا ذكر بعض حقائق الفاعلية في الخطاب الصوفي الذي يتغيّى تربية الشخصية الوطنية الصالحة ويُخطط معالم النجاة في الدنيا والآخرة فيأخذ بيد المريد نحوها كقول العارف الشيخ عبد القادر بن محمد الصديقي الجزائري في ياقوتته الغراء:

فيا أهل عصرنا أجيبوا دعاءنا فإننا ندعوا للهدى عن بصيرة
أُحذركم بما النبي قد أتى به وأخبركم بما أتى من بشارة
ولست بمدعي الرسالة غير ما تحصّل لي من إرث علم وحكمة
فيا عجباً لعاطش بإزائه بحور وماؤها شراب المودة
فدونك فاشرب وارتو من بحورنا ففيها شفتا متن الأهواء المضلة
وأي طبيب للقلوب من العمى أطب من الذكر القوي الإشارة
وأي معد للذنوب ومحوها أشد من اسم ذي الصفات الجليلة
وما الحج والجهاد من غير فرضنا بأفضل من ذكر الأسماء العظيمة
بل الذكر أقوى ثم أولى لا سيما إذا استشعر القلب النعوت الحميدة
بذا صدع المختار أعني نبينا وصح بنقل في الآثار الصحيحة [8]

فالشيخ يدعو الناس من حوله عموماً وخصوصاً أن يلتفوا حول طِلاب العلم والذكر الحكيم فلهذه الغاية خلقوا وإنها دعوة حق وهداية، وتلك رسالة العلماء رسالة ذات حمل ثقيل وما أدراك ما تبليغ العلم بعد العمل به لدى العلماء العاملين والصلحاء

الواصلين والنهاء السالكين كشيخنا هذا الذي نذر حياته كسلفه الصالح للعلم والعمل التقي والجهاد مستوثقا في علمه بالأصول القرآنية والسيرة النبوية العصماء مؤكداً على شراب الذكر الذي به ينجلي الرّان عن القلب وتتنوّر البصيرة ويطمئن الفؤاد؛ وهو عالم صوفي صالح مجاهد مقاوم يحث غيره ومريديه على اتباع الهدى بملازمة الأذكار والصلة بالرب تبارك وتعالى في السر والعلن ومعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته عقيدة وعلما وعملا وسلوكاً، ورغم ما للحج والجهاد من فضائل وأجور فإنه يلحّ على مكانة الذكر لتربية النفس فهو الجهاد الأكبر.

ومثل هذه التعاليم التي يوجّه إليها العلامة هي النباريس التي بها يتهدّى العبد إلى قويم السبيل وخير المصير «والذكر منشور الولاية ولا بد منه في البداية والنهاية، وهو باب عظيم للدخول على الله تعالى، وهو علامة حياة القلب كما ورد في الحكم وسببها...قوله (بل الذكر أقوى) لاستمراره مع العبد طول حياته بخلاف جهاد العدوّ، فوقته محدود، وفي مكان معيّن (ثم أولى بالتقديم لذلك قال تعالى: (ولذكر الله أكبر)، ولأنه يستطيعه الخاص والعام بخلاف الجهاد ».[9]

وبالذكر يُعلمُ كل شيء في السلوك أمراً ونهياً على أساس من القرآن العظيم وسنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فصلاح المرء والنشء الجزائري خصوصاً أن يغرف من بحور أهل العلم والتقى، وأن يعمل أهل التعليم والقائمون على درس العلم في كل مستوياته على التربية الصادقة المتأصلة في حضارة الجزائريين أباً عن جدّ؛ والتاريخ حقيق بالموضوعية صريح لا يرحم في غير موضع الرحمة ولا يماري ولا يكذب القول ولا يظلم...، فمتى كان الجزائريون أهل توصال بعقيدتهم وسير عظمائهم نالوا الفوز ديناً ودنيا وأخرى كما يشهد التاريخ والإنسانية ! ومتى عبثوا بتلك الجذور أو أغفلوها أو أرجؤوها أو خجلوا بها أو ظنوا بها سوءا في حمأة العولمة السلبية والتفتّح غير القيّم ومحاكاة الآخر واتباع الغالب في غير انسجام مع الفطرة تاهوا وضلوا وأضلوا وصاروا إلى ذهاب ريحهم... ! وهو التاريخ أيضاً الذي شهد لهم بالخوَر فيما حل بهم زمن الهرج والفتن والقطع المظلمة فذاك أكبر بيان وأدمغ حجة على ضرورة الاحتكام إلى الميزان الحضاري المشروط كما في قناعة العقلاء ومن أحبّ الجزائر والإسلام والعربية وصان المقوّمات كلها للجزائريين جميعاً، فأولئك العقلاء عساهم أن يرفعوا الضيم عن الجزائر صدقاً وإخلاصاً وتفانياً دون عُقد أو إقصاء أو إفراط أو تفريط أو تهكم... !

3/ تجليات نظم السلوك و صناعة الشخصية السوية(النص الصوفي من الواجهة إلى القفا . نماذج متعددة)

فاعلية الفكر الصوفي في التربية الروحية وترشيد النشء

يشهد للعلماء الجزائريين عامة أنهم وطدوا روابط الصلاح والإصلاح في مجتمعاتهم الريفية والبدوية والحضرية على مرّ القرون من قبل الحرية ومن بعدها، وهم أصَلاء في تعليمهم النشء الصالح الطالع على بيّنة من نور الله تعالى وهدي نبيّه صلى الله عليه وسلم، وشرعة السلف من خلال بناء الأسس التعليمية والدينية والتربوية والوطنية في الكتاتيب والمدارس والزوايا والجوامع، فكان همهم الأول والأولى بالاعتصام أن يعلق قلب الصبي والفتى بذكر الله تعالى وتعلم الحروف العربية والعلوم الأولية في اللغة العربية والشريعة الإسلامية وتلقين الآداب والسلوك الراشد في حلقات الدرس وتأدية الصلوات وشهود المواسم الدينية... وذلك سواء في السلم والحرب وهي قناعة الجزائريين قبل الحكم العثماني وبعده وفي أيام الاحتلال الغربي وبعده، فلا عجب أن تظلّ العقيدة و اللغة والتاريخ والأرض والمصير والعادات والتقاليد...عنوانات الشخصية الجزائرية وتقاليد التربية وقواعد الاستقامة !

والسادة الصوفية لم يخرجوا عن مجموع العلماء إلا أنهم كانوا أعمق طرحا وأشدّ منهجا في توجيه الإنسان صغيرا وكبيرا مركّزين على آداب التربية ونظم السلوك، فكان العلم في معتقدهم العملَ به فيتجسّد في الحركات والسكنات وعمل القلب واللسان وفي كل ما يعلق شخصية المريد، إذ لا بدع في هذا لمّا نتأمل حيوات كبار الصوفية الجزائريين العاملين الفاعلين في التاريخ والوطن وحضارة العرب والمسلمين والإنسانية كالشيخ أبي مدين الغوث والأمير عبد القادر الجزائري وسيدي عبد القادر بن محمد السماحي البكري الصديقي والشيخ أحمد التجاني والشيخ عبد الرحمان الثعالبي والشيخ عبد الكريم المغيلي ... وأضرابهم كثير.

ومعنى هذا أنهم علماء عارفون لم يتكلّفوا توجيه الشخصية والتربية النفسية والذوقية والروحية حتى سلكوا ذلك وهم في مراحل الصبا والفتوة والشباب، كما أنهم أخلصوا علمهم لله تعالى وعملوا به وصدقوا نبيهم صلى الله عليه وسلم وأوطانهم وأمتهم، وحلبوا أشطر الدهر وعاينوا محكّ الحياة حلوها ومرّها، ثم إنهم ركبوا المخاطر والأهوال من أجل الدفاع عن حمى الديار الإسلامية وردّ أعداء الإسلام والوطن والعروبة، فإن كانوا صوفية زهدة عبدة ورّعاً لم يُثنهم ذلك عن عزمتهم في الرباط والجهاد بفحولة أحيت في الأمة الإسلامية والجزائر عهد حمزة وخالد وصلاح الدين رضي الله عنهم أجمعين.

فبُناة الإنسان وصانعوا الشخصيات هم في الحظوة بأعلى مكان كما أنهم موسومون بخصائص الإتقان والتفاني وغاية الاجتهاد وبالغ الصدق والإخلاص بل وربّما الكمال البشري المترقي في شمائل عقلية ونفسية وجسدية وروحية وعاطفية معيّنة؛ فهم رموز في فعل الخير وخشية الله تعالى والصبر والعبادة وحب العمل والجهاد وخلافة الله تعالى في البلاد والعباد خير خلافة، وقيادة الأقوام والدول... وعديد من ملامح العظمة والعبقرية والفرادة والصلاح والحكمة ...!

ولقولٌ في صميم الحقيقة الصوفية أن يكون هؤلاء الجهابذة المربّون ذوي حطب بيانية إبداعية ومعارف حقانية ذوقية وكشفية هيّأتهم إلى سموق منازل الروح ومراتب الهمم؛ فأحرزوا مواهب شاعرية وخواطر نثرية وأدبية كما المكاسب اللغوية والمعرفية والفنية فحذقوا صناعة العبارة وإجادة الصورة ورسم التركيب وإبداع النغم والإيقاع مما زاد في فاعلية خطابهم الذي استولى على الأذواق فهذّبها وخلب الأذهان فغدت بإمْرته تابعة وعن غيره متولية لما وجدت فيه من احتذاء لخطاب الفطرة ونور القرآن الكريم والهدي النبوي.

والتجربة البيانية الصوفية خطّت معالم السلوك المنظوم والتقويم التربوي للنفس والروح والجسد بواسطة اللغة الشعرية المضيئة والكلمة المثيرة في هكذا نماذج.

قال الشيخ أبو مدين الغوث :

إليك مددت الكفّ في كلّ شدّة ومنك وجدت اللطف في كلّ نائب

وأنت ملاذي والأنام بمعزل وهل مستحيل في الرجاء كواجب [10]

فرأس المعالم الصوفية التركيز على عقيدة التوحيد الإسلامية وعنوانها الإيمان بالله تعالى والإخلاص في ذلك المعتقد لا غير؛ وهو روح القرآن العظيم فيما بين العبد الكسير وخالقه الجبار؛ كقوله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد)[11] ؛ فالله تعالى ارتضى الوحدانية دينا لعباده « والاطمئنان الإيماني أن تتوجه بعبادتك إلى الإله الذي يملك الحول والطول، والضر والنفع، لا تظل فكرتك في أنك تعبد ما لا ينفع ولا يضر، لا تظل فكرتك في أنك تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا »[12]

فالشيخ الصوفي الجزائري الكبير يؤصل هنا أصل الأصول وهو إتقان مفتاح العبادة والإيمان واللجوء إلى الله تعالى في السر والعلن، فالعارف في هذين البيتين ينشد

حقيقة الفقر إلى المعبود الغني وحده وهو الخالق الواسع اللطيف ذي الأسماء الحسنى والصفات العليا.

ومن تجليات نظم السلوك وترشيد النفس وتربيتها دعوتُها إلى المحبة الأصل وهي محبة الله تعالى وذكره والاعتصام بحبله في توازن واتزان، وهو باعتباره شيخا مربيا عارفا صاحب ذوق مخصوص يقول:

أهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا ... وفي محبته أرواحهم بذلوا
و خربوا كل ما يفنى و قد عمروا ... ما كان يبقى فيا حسن الذي عملوا
لم تلهِهم زينة الدنيا و زخرفها ... و لا جناها و لا حلْيَ و لا حُلل
هم الأحبة أدناهم لأنهم ... عن خدمة الصمد المحبوب ما غفلوا
سبحان من خصّهم بالقرب حين قضوا ... في حبه وعلى مقصودهم حصلوا[13]

والمصطلح الصوفي ينتشر في هذه الأبيات انتشارا كلفظ "المحبة" وحقيقتها «أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء وأهل المحبة على ثلاثة أحوال، الأول محبة العامة، وهي المحبة الفعلية، يتولّد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم، وفيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جُبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها. والثاني حال المحبة الصفاتية، يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وقدرته وعلمه، وهي محبة الخواص، أو محبة الصادقين والمتحققين وفيها قال النوري: المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار، والثالث هو حال المحبة الذاتية، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علّة، فكذلك أحبّوه بلا علّة، وهؤلاء هم الصديقون والعارفون. فهذه ثلاثة أنواع من المحبة: محبة فعلية، ومحبة صفاتية، ومحبة ذاتية».[14]

وهذه المراتب علامة التفاوت في المعاني الحقانية لدى الصوفية ومن هذه المستويات تتبين الفروق بين أنواع المحبة من العوام إلى الخواص إلى خواص الخواص، فالعارف أبو مدين يدعو المريدين إلى الاجتباء السلوكي بنهج المحبة الخالصة فهي دلالة الرضا والقرب من الله تعالى، وللمحبة ظلال عديدة أقلها أن تسمو بالإنسان العابد إلى درجة الترقي في العروج بالروح والجسد إلى معرفة الله الحي القيوم والابتعاد تدرجاً ورويداً رويداً عن الأغيار والهوى ومشاغل الدنيا إلا بالحظ الذي كان من نصيب المرء من الدنيا حلال طيب مشروع يريد به التقوي على العبادة والقرب من المعبود ونعمّا المحبة محبته تعالى.[15]

ومعالم الإيمان والمحبة محصورة لدى الشيخ أبي مدين حصرها الدكتور محمود عبد الحليم قوله« كيف رسم أبو مدين طريق القرب ؟ ...ما هي الدنيا في الوضع الديني ؟ إن الحياة الدنيا في النظر القرآني هي هذا العبث واللهو والتفاخر بالمال والزينة...

وقال من اشتغل بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذل، وقال: جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس، وقلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس...ولا بد من الكدح في الحياة، ولكن المال الذي يكون ثمرة لهذا الكدح يجب أن لا يستعبد الإنسان، والوضع الإسلامي هو أن هذا المال الذي أنعم الله به على الإنسان هو من عند الله، والإنسان مستخلف فيه، يسير في التصرف فيه على الوضع الذي رسمه الله...

التوبة: يقول أبو مدين: طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة...الإخلاص: وحديث أبي مدين عن الإخلاص حديث جميل...وهو يضع للإخلاص علامة فيقول: علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق...المحاسبة: هي أن يحاسب الإنسان نفسه على كل عمل يأتيه فيزنه بميزان الشرع، ويزنه بميزان الإخلاص، ويصلح حاله في الوقت إن رأى تقصيراً ويستغفر ويتوب...المراقبة: يقول أبو مدين في ذلك: بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة، والمراقبة هي اليقين بأن الله عليه رقيب...»[16]

فالصراط المستقيم إلى الله تعالى واحد بيّن معلوم ليس كالسبل المتفرقة، لهذا أيقن الشيخ الغوث أن طريق القرب التزام روحي شعائري ديني خالص ذوقي واضح لكنه مصطحب بشروط السلوك القويم الذي يوازن بين مطالب الروح والجسد معاً؛ وهو في

تعريفاته هذه التي أوجزتها من عرض الشيخ محمود علامات يهتدي بها الوالج طريق الحق ويأخذ بتلك الشروط التي تتم بها تصفية النفس والعقل والجسم من الأكدار فتتقد فيها شعلة النور المحمدي بعد التهذيب صدقا وصبراً وإرادةً وردّ مظالم وخوفاً ورجاءً وعدولاً عن المآثم واقتراف الذنوب دقيقها وعظيمها...

وخطب العارفين جميعا ذات لغة تظاهر في الواجهة البيانية للنص الشعري والنثري إلا أن ثمّة قفاً مكنوناً متخفياً وراء اللغة يشع بمعرفة قرآنية نبوية هي خلفية الوارد الصوفي والرغبة في التأليف تمكيناً وتوقيع الباعث على الخطاب بغية التربية والإرشاد... !

الخاتمة

مما يجب الإقرار به أن هذا العرض غيض من فيض قد اختزلت مفاصل تطبيقية عديدة في اللغة والجمالية الأسلوبية وخصائص الإيقاع، ولعل ما ذكر يحيل إلى ما اختزل وغيره.

ولـيُعلم أيضاً أن ثمة تقاطعاً كبيراً بين أهداف الدراسة وهذه النتائج والتوصيات والمقترحات والآمال...:

1. اقتراح مجموعة نصوص مختارة للتلاميذ في شتى المدارس ووفق المستوى والعمر من الابتدائي إلى الجامعي فيها تعريف أعلام التصوف وذكر مناقبهم وأعمالهم وتأثيراتهم ومآثرهم في العباد والبلاد ؛وليكن تركيزنا على تربية النشء المسلم والإنسان عموما في العالم بأسره.
2. تخصيص مجلة لعلماء المسلمين تركيزا على ما عليه الجماعة لا غير من خلال التراث ؛سنوية على الأقل تفتح على كل الدراسات في الجامعات ؛ وتعنى بالتربية والشباب وتكوينهم أخلاقيا وروحيا لا علميا وثقافيا ومعرفيا فقط.
3. أعظم نتيجة أراها حريّة بالقول والعمل أنه لا رفعة لأمة أو مجتمع أو شعب إلا بقوام الخُلق الحسن وتربية السلوك؛ لهذا يجب على كل العقلاء في العالم الإسلامي الحبيب أن يعيروا الخطاب التراثي وبالأخص الديني والتاريخي واللغوي كل عناية وصدق وفاعلية فسمو البلاد وصلاح العباد مرهون بهذا في تربية النشء على كل فضيلة فبه تتحقق سلامة الأوطان والأديان والأبدان.

الإحـالات

(1) سورة الأحزاب، الآية : 23

(2) د. محمد سعيد رمضان البوطي، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث،دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط:1990 ، ص:147 ،148.

(3) الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين والثاني والثالث عشر الميلاديين، نشأته-تياراته-دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط:2004 ، ص:11 .

(4) د.عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981م-1401هـ، ص14، نقلا عن: د.أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970، ص 81.

(5) انظر: الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق مجموعة أساتذة، شركة دار الأمة، الجزائر. انظر: الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق د.زكريا صيام، د.م.ج.

(6) د.عبد القادر موسى المحمدي، الاغتراب في تراث صوفية الإسلام، دراسة معاصرة، بيت الحكمة، بغداد، ط1، 2001، ص 114.

(7) الأستاذ عبد الله طواهرية، الياقوتة، نظم العلامة الولي الصالح القطب الواضح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة، محاولة في رمزيتها، تعريف مصطلحاتها، تراجم أعلامها، مطبعة أطلال، وجدة، المغرب الأقصى، ط 1992، ص 10،9.

(8) العلامة الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة، الياقوتة، نقلا عن الأستاذ عبد الله طواهرية، م.س، ص 37، 38.

(9) م.ن، ص 94، 96.

(10) ا الشيخ أبو مدين الغوث التلمساني، تقريب المعاني من ديوان سيدي أبي مدين التلمساني، تحقيق الأستاذ درار مكي، الجمعية العابدية الشاذلية، وهران،ط:2002 ، ص:56

(11) سورة الإخلاص، الآيات 1-4

(12) الشيخ محمد متولي الشعراوي، عقيدة المسلم، جمع و إعداد عبد القادر أحمد عطا، دار القلم، بيروت، لبنان، (د.ت) ص: 66.

(13) الشيخ أبو مدين ، م، س، ص: 58

(14) د.عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، مؤسسة المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ص 237، 238.

(15) انظر: ابن منظور، لسان العرب، تقديم العلايلي، دار لسان العرب، بيروت ، (د.ت)، ص 544، انظر: أفلاطون، المأدبة، ترجمة د.وليام ألميغي، دار المعارف، مصر، 1970، ص 61.

(16) د.عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، حياته ومعراجه إلى الله، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت)، ص 54 ،55، 57، 59، 60، 66، 67.

مراجع الدراسة

القرآن العظيم ، المصحف الشريف برواية الإمام ورش عن الإمام نافع

_محمد سعيد رمضان البوطي، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث،دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر،ط:1990

_الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين والثاني والثالث عشر الميلاديين، نشأته-تياراته-دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط:2004.

_عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981م-1401هـ

_أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970.

_الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق مجموعة أساتذة، شركة دار الأمة، الجزائر. انظر: الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق د.زكريا صيام، د.م.ج.

_عبد القادر موسى المحمدي، الاغتراب في تراث صوفية الإسلام، دراسة معاصرة، بيت الحكمة، بغداد، ط1، 2001

_الأستاذ عبد الله طواهرية، الياقوتة، نظم العلامة الولي الصالح القطب الواضح سيدي عبد القادر بن _محمد بن سليمان بن أبي سماحة، محاولة في رمزيتها، تعريف مصطلحاتها، تراجم أعلامها، مطبعة أطلال، وجدة، المغرب الأقصى، ط 1992

_العلامة الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة، الياقوتة، نقلا عن الأستاذ عبد الله طواهرية، م.س

_الشيخ أبو مدين الغوث التلمساني، تقريب المعاني من ديوان سيدي أبي مدين التلمساني، تحقيق الأستاذ درار مكي، الجمعية العابدية الشاذلية، وهران،ط:2002

_الشيخ محمد متولي الشعراوي، عقيدة المسلم، جمع و إعداد عبد القادر أحمد عطا، دار القلم، بيروت، لبنان، (د.ت)

_عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، مؤسسة المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع،

_ابن منظور، لسان العرب، تقديم العلايلي، دار لسان العرب، بيروت ، (د.ت)

_أفلاطون، المأدبة، ترجمة د.وليام أليغي، دار المعارف، مصر، 1970

_عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث، حياته ومعراجه إلى الله، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت)